قصة من الأدب الروسى الرفيع :

الملاك ...

للفيلسوف الروسى الكبير لوى تولستوى

بقلم الأستاذ مصطفى جميل مرسى

— ٣ —

طفقت المرأة تحدثهم بقصة هاتين الطفلتين ... وقد شاع الحزن فى صوتها ، وارتسم الألم على جبينها فقالت : « إنها لقصة فاجعة ... ! لقد قضى أبوهما يوم الثلاثاء ، ولحقت به أمهما يوم الجمعة بعد أن وضعتهما ... وكنت أنا وزوجى نعيش ككل الفلاحين فى بساطة عيش ودقة حال ، وكانت دارنا مجاورة لدارهم. لقد مات أبوهما وكان يقطع الأخشاب فى الغابة تحت جذع شجرة هوت عليه من حالق ، فسمعته وفاضت روحه قبل أن يبلغوا به الدار

وبعد ثلاثة أيام . وضعت زوجته هذين التوأمتين — ولم يكن لها من ناصر أو معين فوضعتهما وحيدة ... ولقيت منيتها وحيدة ... ! وفى اليوم التالى توجهت إليها ، أنظر ما آلت إليه حالها ... فما كدت أتخطى الكوخ ، حتى وجدتها متيبسة الجسد وقد علت وجهها صفرة الموت ... وتدحرج جسدها فوق هذه الطفلة ، فأساب ساقها العرج ... !

وجاء القوم من القرية — وكلهم حزين ، يأكل قلبه الألم — فكفنوها فى خال وحملوها إلى المقبرة ، ودفنوها جوار زوجها ... لقد كانت الطيبة تملأ نفوسهم والعطف يفيض من قلوبهم ... ! ولكن هاتين الطفلتين أصبحتا ومالهما من ولى أو كفيل ... وكنت حينئذ المرأة الوحيدة فى القرية التى عندها طفل لم يتجاوز أسبوعه التاسع ... فضممتها إلى صدرى ... وعدت بهما إلى كوخى . فلما اجتمع الفلاحون راحوا يفكرون ويطيلون التفكير فى أمرهما ، وأخيراً ، قالوا لى : عليك العناية بهما الآن يامارى ... وسوف ندبر أمرهما فيما بعد ... ! »

فأخذت على عاتقى أن أرضع هذه الطفلة الصحيحة ، وأدع العرجاء ... فما كنت أحسب أنها ستعيش . ولكنى تساءلت : بأى ذنب تعانى هذه الطفلة ألم الجوع ؟ ! فما لبثت الرحمة أن فاضت بين جوانحى ... فرحت أرضعهما مع طفلى ... وقد كنت لبانة يتفجر اللبن من ثدىى فى فيض لا ينقطع ، وكان الله يأتينى برزق هاتين الطفلتين ... فترعرعتا على حين توفى الله طفلى الوحيد ، قبل أن يبلغ السنتين ... وقد أقبلت علينا الدنيا بعد انصرافها عنا ... فزاد حبى لهما وحنانى عليهما ...

أفعلمتم الآن سبب ذلك الحب ؟ ! إنهما سعادتى فى هذه الحياة ، وأملى فى هذه الدنيا ... ! » وضمت « السيدة » الطفلة العرجاء إلى صدرها بإحدى يديها ، بينما ارتفعت يدها الأخرى لتمسح دمعة حارة تحدرت على خدها فتنهدت « مترونا » ... وقالت فى صوت عميق وجرس ندى : « صدق من قال » يعيش المرؤ بغير والديه ! ولكن لا يعيش بغير الله ... ! »

وران الصمت عليهم ... ! وفجأة انبثق فى الكوخ نور باهر كأنه وميض البرق فى ظلمات الشتاء ... وشع الضوء من ذلك الركن الذى يجلس فيه « ميشيل » ... فالتفت عنده أبصارهم . وهو على كرسيه يحدق فى سماء الغرفة . وقد افتر ثغره من ابتسامه حلوه ... أشرقت فى وجهه وأضاءت على جبينه ...

فلما تهيأت المرأة للذهاب . حيتهم ... وأمسكت بطفلتيها . ومضت بهما ... فنهض « ميشيل » من جلسته ... ووضع ما كان بيده وخلع عنه مئزره ... ثم انحنى لسيمون وزوجته « مترونا » وقال فى صوت شكور « وداعاً ... أيها السادة ... لقد عفى الله عنى ... ! وغفر لى ذنبى ... »

وراح ميشيل يتألق فى ضياء تنبعث من هالة حوله ... فانحنى سيمون وقال فى صوت ملؤه العجب « لقد حدست إنك لست ببشر يامیشیل ... ولن أثقل عليك بتساؤلى ... ولكن آمل أن تخبرنى : لماذا تألق وجهك حينما عثرت عليك فى الطريق عريان جائعاً ؟ ! ولماذا ابتسمت إلى زوجتى تلك الابتسامة الوضيئة حينما قدمت إليك الطعام؟ ! وحينما دخل ذلك «السيد الجليل» كوخنا،

لنصنع له حذاء إفتر تفرك عن بسمة مثيلة بها ؟ . وأخيراً حينما أتت هذه السيدة مع هاتين الطفلتين تألق وجهك بابتسامة ثالثة فى جلال وبهاء ...

نشدتك الله يا ميشيل أن تطلعنى على سر ذلك الإشراق ، وعلة هذه الابتسامات الثلاث ؟ ! ! » ...

قال ميشيل فى صوت هادئ رخيم « لقد انبثق الضوء عنى وأشرق النور منى لأن الله يعاقبنى ... بيد أنه عز وجل غفر لى ذنبى أخيراً ! ... والسر فى تلك الابتسامات الثلاث أن الله أرسلنى كى أتعلم ثلاث حقائق ... وقد تعلمتها ... !

لقد تعلمت واحدة حينما فاضت الرحمة من قلب زوجتك ... فكانت الابتسامة الأولى ! !

وتعلمت الثانية حينما سمعت ذلك « السيد » يتحدث عن حذاءه ، فكانت الابتسامة الثانية ! !

وتعلمت الثالثة عندما رأيت هاتين الطفلتين ... فكانت الابتسامة الثالثة . ! »

فقال سيمون فى دهش ورجاء « خبرنى لماذا عاقبك الله يا ميشيل ؟ ! وما هذه الحقائق الثلاث ؟ ! »

فأجاب ميشيل فى صوته الهادئ الرخيم « لقد عاقبنى الله لأنى عصيت له أمراً ... لقد كنت ... ملاكا أسبح فى ملكوته الأعظم ... فأنزلنى ذات يوم إلى الأرض لأقبض روح امرأة من خلقه ... فأبصرتها راقدة على سريرها وحيدة — وقد وضعت توأمين ! — فلما أحست دنوى منها ، أدركت أنى رسول الله إلى روحها ... فقالت وقد كادت أن تحبس صوتها الدموع :

« أيها الملاك ... لقد مات زوجى منذ أيام وما لى من أخت أو عمة أو ولية ترعى طفلتى ... فلا تقبض روحى ! ودعنى أرضعهما وأرعاهما حتى تستويا على سوقهما قبل أن أموت ! ! إن الأطفال لا تحتمل العيش دون أب أو أم ! . »

فأصغيت إلى حديثها الرقيق الرفيق ... ووضعت إحدى الطفلتين على صدرها والأخرى على ذراعها ... وانثنيت آيباً إلى الله تعالى فى السماء ... وقلت فى خشوع « إنى عاجز عن أن أقبض روح هذه الأم ... لقد قتل زوجها تحت جذع شجرة منذ أيام ... وولدت لها اليوم توأمتان ... وتوسلت إلى ألا أسل روحها قائلة « دعنى أرضعهما وأرعاهما حتى تستويا على سوقهما قبل أن أموت ! إن الأطفال لا تحتمل العيش دون أب أو أم ! . »

« فعدت ويدى عاطلة من روحها ! . » فسمعت الصوت العلوى يردد الأمر الجليل « إذهب ... فاقبضها ولا تكن عودتك إلى السماء قبل أن تتعلم حقائق ثلاث » :

« ما الذى فطر عليه الإنسان ؟ ! »

« ما الذى حرم منه الإنسان ؟ ! »

« ما الذى يعيش به الإنسان ؟ ! »

فعدت طائراً إلى الأرض — وأنا أرتعد فرقاً من غضب الله وأنتفض جزعاً من عقابه . فقبضت الروح ... وسقطت الطفلتان من على صدرها ، ومال جسدها على جانبها ، فحطم ساق إحدى الطفلتين فالتوت ... وهممت بأن أصعد إلى السماء أحمل الروح إليها . ولكن الريح أثقلتنى وأخذت أجنحتى تتضاءل وتنسل من ظهرى ... فصعدت « الروح » وحدها إلى الله ... بينما سقطت أنا على الأرض فى جانب من الطريق ! . »

ففر سيمون فاه ... ونظرت « مترونا » فى بلاهة يشوبها الدهش ... لقد أدركا الآن من كان يضمه دارهم ويعيش بينهم ويأكل من طعامهم .. فترقرقت الدموع فى عيونهما ... وراحا يبكيان فى نشيج ومزيج من الرهبة والمرح . والإجلال والفرح وانطلق الملاك يقول : « لم أكن أعرف حاجات البشر من جوع وعرى حتى صرت بشراً مثلهم ... كنت وحيداً ... يهرؤنى القر ، وانتضور من الجوع ... ولا أدرى ما الذى أفعله فى هذا العالم

وامتد طرفى ... فلمحت كنيسة على مرماه .. فتوجهت إليها عسانى أجد ثمت مؤئلا ... بيد أنها كانت مغلقة ... فتوجهت إلى ما وراءها ... حيث قعدت اتوقى بها الريح الصرصر التى تسفح الوجه ، وتصك الجسد ... !

فلما غشى المساء عيون الكون ... رأيت إنساناً يقبل وحيداً على ... وبينه وبين نفسه حديث ... ولأول مرة رأيت وجه الإنسان ... ذلك الوجه المخيف الميت فأشحت عنه برأسى ... وطرق سمعى ذلك الحديث أو تلك الخواطر التى كانت تضطرب بينه وبين نفسه ... وتنعكس على شفتيه فيرتفع بها صوته ... كان يتساءل كيف أنه يقى جسده لفحة البرد وقشعريرة الشتاء ، ويغذى زوجته وصغاره بماله اليسير ...

فرمت أفكر « هذا إنسان يدبر ملبساً له فى الشتاء ... وطعاماً لعائلة ... فكيف يقدم لى يد المساعدة ؟ ! » فلما لمحنى اضطرب فرقاً وجزعاً ومر بى فى الجانب الآخر من الطريق ...

فتدارکنی الیأس ، لولا أنی أبصرته ینقلب راجعاً إلی ... فرفعت إلیه بصری فلم أعرفه ... لقد کان یرتسم الموت علی جبینه ... أما الآن فسوف یعیش ... لقد عرفت فی شخصه وجود الله عز وجل . ! ألبسنی ثوباً علیه ، وأخذنی معه إلی داره حیث وجدت من هی أقسی قلباً وأشد کلاماً ، لقد شاع فی صوتها الموت ، وأبصرت من حولها الهلاك ... کانت تود لو ألقت بی إلی قارعة الطریق ... ولو أنها فعلت ذلك لکان الموت من نصیبها . !

فلما بدأ الرجل یحدثها عن الله عز وجل ، لان قلبها ومال إلی فؤادها ... فأحضرت لی الطعام ، ونظرت إلی وجهی فی عطف وشفقة ... فعرفت فی شخصها وجود الله ...

فتذکرت أولی الحقائق الثلاث التی أسرنی الله بأن أعلمها « ما الذی فطر علیه الإنسان ؟ ! . »

فأدرکت أن الذی فطر علیه الإنسان هو « الحب » ! ! وقد تولتنی البهجة حینما علمت أن الله أوحی إلی بالدرس الأول ... فافتر ثغری عن الابتسامة الأولی ... ولکن بقی علی أن أتعلم الحقیقتین الأخرتین : « ما الذی حرم منه الإنسان ؟ ! » و « ما الذی یعیش به الإنسان ؟ ! »

« مضی عام وأنا أعیش بینکم .. فلما أتی ذلك السید الجلیل بأمرنا بصنع حذاء له علی ألا یبلی أو یخلق قبل أن تنقضی سنة علی ذلك ... نظرت إلیه .. وعلی حین غره لمحت فوق رأسه رفیق « ملاك الموت » ولم یره أحد سوای ... ولکنی عرفته ، وأدرکت أن الشمس لن تغیب عن الأفق إلا وقد غابت روح ذلك الرجل عن جسده ... فتعجبت ... إن هذا الرجل یعد العدة لعام بأکمله ... ولا یحسب أن قضاءه قد حم ... وأن المساء لن یأتی علیه إلا وجثته مسجاة هامدة ... »

فتذکرت الحقیقة الثانیة ، فکأن الله یوحی إلی أن تعلم « ما الذی حرم منه الإنسان ؟ » فابتسمت للمرة الثانیة ...

ومکثت أنتظر أن یوحی إلی الله بالحقیقة الثالثة « ما الذی یعیش به الإنسان ؟ ! »

وفی العام السادس .. جاءت امرأة ومعها توأمتان صغیرتان فعرفت الطفلتین وعرفت أن الله قد قیض لهما من کان أحن علیهما من أمهما ... فعاشتا وترعرعتا . !

ولما سمعت ما قصته علینا من کفلتهما رحت أفکر مستغرقا « لقد توسلت إلی الأم أن أدعها حیة حتی ترعی الطفلتین ... الضعیفتین ... واعتقدت أنها علی حق حینما قالت « إن الأطفال لا تحتمل العیش دون أب أو أم ... » بید أن امرأة غریبة عنهما کفلتهما حتی نمتا وشبتا ... وأدرکت مبلغ ذلك الحب الذی یختلج بین جوانح تلك الظئر الحاضنة ... فرأیت فی شخصها وجود الله ... وتعلمت الحقیقة الثالثة وهی « ما الذی یعیش به الإنسان ؟ ! » ... إنه « الحب » ... وعلمت أن الله أوحی إلی بالدرس الأخیر ... وأنه عفی عما تقدم من ذنبی ومن عصیان أمره علی غیر بصیره ... فکانت الابتسامة الثالثة !! . »

أضحی « الملاك » وهو عار مما علیه ... یشع من جسده نور قوی یبهر الأبصار ... وراح صوته یخفت وینخفض حتی صار ، وکأنه لا یأتی من فیه ... بل یأتی .. من السماء ... !

« لقد علمت أن البشر لا یعیشون بالحرص علی حیاتهم ... بل بالحب المغروس فی قلوبهم وهل نفع حرص الأم علی بنتیها ؟ ! لا بل کان حب الظئر لهما ! ! .

ولقد عشت — عند ما کنت إنساناً — لا بالحرص علی حیاتی ... بل بالحب الذی یختلج بین جوانح عاریة سبیل ... وبالرحمة والعطف الذی انبثق فی فؤاده هو وزوجته علی ...

إن الحب شیء فطر علیه الإنسان وغرس فی قلبه ... وعلیه یعیش وبه یحیا فی هذه الدنیا ... ! وکنت احسب أن الله وهب الحیاة للبشر ، ومنحه الأمل فی أن یعیش ... بید أنی الآن علمت أشیاء أخری ... ! علمت أن الله لم یخلقه کی یعیش وحیداً فریداً . بل خلقه ألوفاً ساعیاً للارتباط بغیره ... عرفت أن المرء مع تخیله أنه یعیش بالحرص علی حیاته ... فهو یعیش فی الحقیقة بالحب ... لأن من کان الحب یملأ قلبه ... ففیه نفحة من الله ... فالله عز وجل هو الحب ... والحب هو الله !! ... »

ثم ارتفع صوت « الملاك » فی جرس ندی یردد أنشودة ملائکیة یحمد فیها الله ویثنی علی آلائه ! ! فکان الکوخ والأشجار والطیور تتراقص وتهتز وکأنها تسبح بآیات الله ... وانحسر سقف الکوخ حیث ارتفع عمود من النور یربط السماء بالأرض ... نخر « سیمون » وزوجته وأطفاله وقد ملکت نفوسهم الرهبة والخشوع ، وملأت قلوبهم الخشیة والإجلال ! .

ونبت « للملاك » جناحان علی کتفیه ... حیث راح یسبح بهما مصعداً إلی السماء ... !

فلما أفاق « سیمون » ... وراح یقلب طرفه فیما حوله ... رأی الکوخ وقد أصبح کما کان .. ولیس فیه سوی زوجته « مترونا » وأطفاله الصغار ...

مصطفی جمیل مرسی

مطبعة الرسالة تقدم قريباً

الطبعة الثانية من كتاب :

في أصول الأدب

محاضرات ومقالات في الأدب العربي

بقلم الأستاذ

أحمد حسن الزيات

وقد زيدت عليه فصول لم تنشر

سكك حديد وتلغرافات وتليفونات الحكومة المصرية

نشر الاعلانات في الرسائل البرقية

إن الإعلان في الرسائل البرقية المتداولة بين سكان القطر المصري بأجمعه هو دعاية هامة واسعة النطاق قد هيأتها المصلحة للمعلن الذي يرمي إلى رواج أعماله وللتاجر الذي يبغي التوسع في تجارته وقد راعت المصلحة أن تكون أجور النشر في هذه الرسائل زهيدة وفي متناول الجمهور فجعلت كل مائة ألف إعلان بثلاثين جنيها مصرياً وكل ربع مليون بسبعين جنيها وكل نصف مليون بمائة وعشرين جنيها فضلا عن تخفيض معين في المائة إذا بلغ المراد نشره مليوناً أو أكثر من الإعلانات .

انتهزوا هذه الفرصة ولا يفوتنكم أن تحجزوا من الآن القدر اللازم لكم من هذه الرسائل .

ولزيادة الإيضاح اتصلوا : — بقسم النشر والإعلانات بالإدارة العامة — بمحطة مصر